أثر الدرس اللغوى في فهم النص الشرعى

بقلم

أ.د. محمد المختار محمد المهدى عبد الله

أستاذ اللغويات بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر

مقدمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . نستروح عبق الإيمان ، وبحمده وتسبيحه نستمطر العون والتوفيق والرضوان ، وبالصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم ، ونوابغ الحكم ، وسوابغ النعم ، نعطر جو الزمان والمكان .

أما بعد ...

فإن هذا الموضوع الذى يعبر عنه عنوان هذا البحث مما ينبغى أن تكثف حوله الجهود قبل أن يستغلق فهم النص ، أو يجمد الذهن على معنى ضيق أراد الله أن يكون واسعا ، أو يحاول العقل توسيع ما أراده الله محدداً .

– ذلك أننى ممن يرى أن الفصل التعسفى الذى حدث بين علوم العربية دون ربط معنوى يقف بالدارس على الفروق الدلالية بين أسلوب وآخر، وعلى السر فى هذا الاختلاف .. من أهم أسباب انصراف هذا الجيل عن تعلم العربية وتذوقها والتعمق فى أسرارها وخصائصها .

– كما أن من هذه الأسباب الاهتمام بعلم النحو على أنه قواعد جافة يمثل لها بأمثلة صارت أضحوكة فى بعض وسائل الإعلام من كثرة ترداده على ألسنة الحافظين لها دون ظهور أثر تطبيقى لها على الأساليب الفصحى التى تحرك المشاعر وتبين الحِكَم ، وتأخذ بلب القارىء والسامع دون أن يدرك السر فى تراكيبها حتى يستطيع أن ينسج الدارس على منوالها .

– وليس بخاف على أحد أن أفصح هذه الأساليب وأروعها وأقربها إلى قلوب المؤمنين أساليب القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة . تلك الأساليب التى استنبط منها الفقهاء أحكام الشريعة ، واختلفت وجهات نظرهم أحياناً فى فهم النص ، ورتب كل منهم حكمه على هذا الفهم مستدلا على فهمه باستعمال العرب للفظة ما فى معنيين اختار منهما ما رآه متسقا مع السياق أو مع نص آخر ، أو معتمداً على إمكانية فهم الجملة القرآنية أو

النبوية مرتبطة بما قبلها أو مستأنفة معنى جديداً تسمح به قواعد الفصحى، أو مفسراً لمعنى الجملة على الحقيقة أو على المجاز .

– وكثيراً ما ثار لدى المثقفين ثقافة مدنية سؤال" عن سبب اختلاف الأئمة فى بعض الأحكام الشرعية ، بل وكثيراً ما تعصب بعض المسلمين لرأى فى مذهبٍ ما منددا بالآراء الأخرى والمذهب الآخر .. وفى ذلك تبديد لجهود الدعوة التى ينبغى أن تركز حول الأصول العامة التى لا خلاف حولها والثوابت الراسخة فى ديننا ؛ حيث إن الاسلام يسع جميع تلك الآراء ما دامت اللغة التى نزل بها كتابه تسيغ هذا الفهم وتحتمله التركيب .

ورسولنا ﷺ قد أرانا النموذج الأمثل فى فهم النص على حقيقته أو على مجازه فى حديثه المشهور حين قال للجنود بعد أن كفى الله المؤمنين القتال فى غزوة الأحزاب ، وأمر بالتوجه إلى بنى قريظة الخونة حيث قال : "لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة" ففهم بعض الصحابة هذا الحديث على معناه الحقيقى بحيث إذا جاء وقت العصر قبل أن يصلوا إلى بنى قريظة امتنعوا عن الصلاة تنفيذا لأمر رسول الله .. وفهم البعض الآخر أن الرسول ﷺ يقصد بنهيه هذا الإسراع فى الوصول إلى بنى قريظة لمباغتتهم وحين جاء موعد صلاة العصر صلوها فى الطريق .

ولما علم رسول الله ﷺ بما فعله الفريقان أقر كلا على ما فهم وما فعل .

لهذا وذاك أقدم هذه المحاولة : أشير فقط إلي ما فى دراسة العلوم العربية من أثر فعال فى الفهم الصحيح والمعتدل لوحى الله الخالد .

ومن الله وحده نستمد العون ونرجو النفع . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أ.د. محمد المختار محمد المهدى
أستاذ اللغويات بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

تمهيد:

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذا البحث نستصحب بعض الحقائق التى تفيدنا فى فهم الأسس التى ينبنى عليها ما يمكن استنباطه من نتائج،توضح أهمية التعمق فى درس الفصحى،وسيلة وحيدة للوصول إلى مراد الله من وحيه المبارك بقدر الطاقة البشرية :

١- الدرس اللغوى المقصود ليس خاصا بفقه اللغة ومعاجمها - كما قد يتبادر إلى الذهن - إنما المقصود به دراسة النص من جوانبه اللغوية المتعددة : دلالة لغوية معجمية ، أو صرفية ، أو نحوية ، أو بلاغية . فكل ذلك له تأثيره الواضح في الفهم والاستنباط . وهذه العلوم متكاملة لا يغنى أحدها عن غيره .

٢- النص الشرعى المقصود فى هذا البحث منحصر فى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وكلاهما - كما هو من البدهيات - بلسان عربى مبين .

٣- هذا اللسان ما اختاره الله أداة لوحيه ووعاء له ، إلا لتميزه عن غيره من اللغات،من حيث وفرة المواد اللغوية وتعدد معانيها واستخداماتها وتراكيبها وصيغها ، مما يحقق البلاغ المبين إلى كل العالمين .

٤- فى أثناء نزول الوحى كانت السليقة العربية والنبوغ فى فنون الكلام الفصيح شعراً ونثراً سمة غالبة فى البيئة العربية؛وبهذه السليقة أدرك العرب مرامى ومدلولات الوحى مما جعلهم يسجدون لبلاغته،ويعجزون عن مجاراته حتى من قبل أن يؤمنوا به .

٥- عالمية الاسلام أتاحت لجميع الأجناس البشرية على اختلاف ألسنتها وألوانها وأوطانها أن يدخلوا فى دين الله أفواجا ، وصار من حقهم أن يفهموا نصوصه وتعاليمه ، ومن حيث إن لغاتهم

تختلف عن العربية كان لابد لهم من تعلم لغة الوحى ليصلوا إلى ما يريدون .

٦- من أجل ذلك هرع علماء الاسلام من عصر الصحابة إلى تقعيد هذه اللغة وضبط مفرداتها المستعملة زمن الوحى ، وسمات الاساليب والتركيبات العربية .. وبهذا نشأت كل العلوم العربية لخدمة هدف محدد ، هو الحفاظ على القرآن والسنة من التحريف، أو الفهم السقيم ، أو التأثر باللغات الوافدة .

٧- فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وبعد الفتوحات الإسلامية، ظهر اللحن فى ألسنة بعض المسلمين الذين دخلوا فى دين الله ولغاتهم تختلف عن العربية ، ومن ذلك ما روى عن أعرابى دخل المدينة وطلب من أحد القراء الأعاجم أن يعلمه القرآن فبدأ معه بسورة التوبة حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ فنطقها القارئ بكسر اللام من " رسوله " فقال الأعرابى ذو السليقة السليمة : وأنا برئ من رسوله كما برئ الله منه ومن المشركين . فأمسك القارئ - الجاهل بلغة الوحى - بتلابيب الأعرابى وذهب إلى سيدنا عمر مخبراً إياه بأن هذا الأعرابى قد برئ من رسول الله ، فسأل عمر هذا الأعرابى فحكى له ما حدث . فقال له : ما هكذا نزلت الآية يا أعرابى ، إنها بضم اللام من "رسوله" فقال الأعرابى وأنا برئ ممن برئ الله ورسوله منهم . وأساس هذا الفهم لدى الأعرابى أننا إذا نطقنا كلمة "رسوله" بكسر اللام كانت معطوفة على المشركين الذين وقعت عليهم البراءة كما تقول : عجبت من محمد وعلىّ فالعجب منصب

عليهما معاً . أما إذا قرئت الآية بالرفع فان كلمة "رسوله" تكون بدءاً لجملة جديدة تقديرها : ورسوله برىء منهم كذلك .

وخرج سيدنا عمر فلقى شبابا يتبارون فى الرمى فعاب عليهم طريقة رميهم فقال شاب منهم : يا أمير المؤمنين نحن قوم متعلمين . فغضب عمر وقال : لخطؤك فى كلامك أشد علينا من خطئك فى رميك .

ولهذا بدأ علماء الصحابة كأبى الأسود الدؤلى وسيدنا على بن أبى طالب فى وضع قواعد النحو أولاً للمحافظة على الإعراب ..

٨- وتبع ذلك أن بدأت الشبهات تسرى بين بعض المسلمين تشكك فى سلامة الأسلوب القرآنى وألفاظه، ومن ذلك أن نافع بن الأزرق الخارجىّ حين رأى حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس يجلس فى مسجد النبى ﷺ يفسر القرآن دخله الشك فى قدرة هذا الغلام على تفسير كتاب الله ، فجمع بعض الأسئلة التى رآها صعبة فى مجال الكلمات الغريبة فى القرآن ، وبدأ يسأله عن معانى هذه الكلمات ، وحين يجيبه سيدنا عبد الله بالمعنى يسأله : وهل تعرف العرب ذلك فى كلامهم ؟ فيرد عليه ابن عباس ببيت من الشعر العربى يؤيد ما قاله فى تفسيره الكلمة ، وذلك كله من منطق أن القرآن نزل بلسان عربى مبين .. وسميت هذه الأسئلة ، واشتهرت بمسائل نافع بن الأزرق ، وقد تجاوزت مائة مسألة مذكورة فى كتاب الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى وكتاب البرهان فى علوم القرآن للزركشى .. وكان هذا سبباً فى ظهور كتب غريب القرآن التى بدأت بها كتب المعاجم .

٩- ولما جلس أبو عبيدة معمر بن المثنى لدروس العلم في المسجد جاءه رجل يقول له : إن العرب حين تستعمل أسلوب التشبيه فإنها

تشبه مجهولاً بمعلوم حتى يتضح المجهول،فما بال القرآن يشبه مجهولا بمجهول في قوله تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رءوس الشَّيَاطِينِ ﴾. فنحن لم نر طلع الشجرة فهى مجهولة لدينا ، ورؤوس الشياطين أيضاً مجهولة لنا حيث لم نر شيطانا ، فكيف وقع هذا فى القرآن ؟. فرد عليه معمر بأن العرب تكتفي بالصورة الذهنية عن الصورة المشاهدة ، ورأس الشيطان صورته فى الذهن العربى صورة كريهة مخيفة مرعبة ، فشبه به شجرة الزقوم كما فعل العرب حين شبهوا الرماح بأنياب الغول وهم لم يروا الغول فى مثل قول الشاعر :

أيقتلنى والمشرفىّ مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ومن هنا نشأ علم البلاغة لخدمة أساليب القرآن أيضاً .

١٠- ولما كان الهدف واحداً لهذه العلوم تعاونت وتكاملت في فهم النص الشرعى ، وأجمع علماء الشريعة وفقهاؤها أن تعلم العربية والتعمق فيها شرط أساسى لكل باحث فى أى علم شرعى ، ولجأ أئمة الاستنباط إلى تلك القواعد يستعينون بها على بيان أحكام الله ، بل جعلوها أحياناً حكَماً بين الآراء ، وجمعا بين النصوص ، فكانت (مباحث الألفاظ العربية) مثلا بابا رئيسا فى علم أصول الفقه ، وكان اشتراط أهل العلم في أى مجتهد أن يكون إلمامه عميقاً بأسرار العربية ، وكانت مقولات المفسرين فى بداية كتبهم تنبيها مسهبا إلى أهمية التعمق فى العربية بعلومها المختلفة وسيلة لفهم كتاب الله . ومن أهم هذه العلوم : علم الغريب والمعاجم ، وعلم الصرف ، وعلم النحو ، وعلم البلاغة والأدب .

ضرورة الدلالات الأربع:

يرجع الأساس الذى بنينا عليه أهمية الرجوع إلى هذه العلوم إلى أن القارىء لأى نص عربى قد يصادفه لفظ لا يدرى استعمال العرب له فيلجأ فوراً إلى المعجم العربى ليعرف دلالته اللغوية .. غير أن المعاجم العامة وبخاصة الكبيرة منها مثل "لسان العرب" تستوعب المعانى الواردة فى اللغة بمختلف لهجاتها وما ورد من شعرها ونثرها .. وقد يصعب على الدارس المبتدىء تحديد المعنى المراد فى النص الشرعى من خلال هذه المعاجم ، فالأفضل له أن يلجأ إلى كتب الغريب ؛ بحيث إذا كان البحث عن معنى لفظ قرآنى رجع إلى كتب : غريب القرآن . وإن كان فى حديث نبوى لجأ إلى كتب غريب الحديث . ومن أفضل هذه الكتب فى غريب القرآن : المفردات للراغب الأصفهانى . ومعجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية . أما كتب غريب الحديث فمن أيسرها كتاب " النهاية فى غريب الحديث والأثر " لابن الأثير ، والفائق في غريب الحديث للزمخشرى . ومن العلماء من جمع بين غريب القرآن والحديث مثل الهروى فى كتابه : " الغريبين " .

ومع كل ذلك لابد من إدراك السياق للنص عند تحديد المعنى المراد .

– وبعد أن يعرف المعنى اللغوى للمادة لابد له أن يبحث عن الصيغة التى أتت عليها المادة ؛ إذ لكل صيغة معنى يخصها ، وعند معرفة الصيغة ومعانيها الواردة فى اللغة ينضاف المعنى الصيفى إلى المعنى اللغوى للمادة . وستأتى أمثلة كثيرة توضح أن كل حرف يزاد على أصول الكلمة العربية لابد أن يكون له معنى زائد يقصده البليغ ، ويتكفل ببيان هذه الصيغ "علم الصرف" .

كما أن دراسته مهمة للغاية فى كيفية تجريد الكلمة من زوائدها ليتمكن الدارس من الكشف على معناها فى المعاجم ؛ لأن معظم هذه المعاجم تضع تصرفات اللفظ تحت المادة اللغوية المجردة، فإذا شاء الباحث

معرفة معنى الاستقامة مثلا كان عليه أن يرجع إلى مادة : " القاف والواو والميم " وإذا أراد أن يبحث عن معنى التقوى كان عليه أن يبحث فى مادة : " الواو والقاف والياء " وهكذا ..

- وبعد أن يحدد المعنى اللغوى من كتب الغريب ، والمعنى الصيغى من علم الصرف يأتى دور علم النحو فى تحديد الموقع الإعرابى لهذه الكلمة ووضعها فى الجملة التركيبية حتى لا ينسب حدث إلى من لم يقم به .. ولا يخفى ما للعلامة الإعرابية فى آخر اللفظ من أهمية بالغة فى تحديد المعنى المراد ، وستأتى أمثلة كثيرة لاختلاف المعنى باختلاف الإعراب ، ويكفى هنا الاشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ . فالفتحة على إبراهيم دليل على وقوع الابتلاء عليه بحيث إذا تغيرت إلى الضمة كان الامتحان واقعا منه على ربه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . فالضمة على كلمة العلماء هى التى دلتنا على أنهم هم الذين يخافون ربهم . ولو تغيرت إلى الفتحة لكان المعنى أن الله سبحانه هو الذى يخاف من العلماء . وقد مر بنا فى التمهيد كيف فهم الأعرابى المعنى من تغير الكسرة إلى الضمة فى قوله تعالى ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ .

وقد تنوعت كتب النحو من عهد "سيبويه" إلى الآن فمنها ما اختص بشرح القواعد بأمثلة من واقع المستعمل لدى الدارسين ، وهى المشهورة الآن فى الدراسة التجريدية من أمثال شروح ألفية ابن مالك، وهذا النوع من الكتب لا يصلح إلا للمتخصصين الحافظين لكتاب الله كما كان الوضع فى مناهج الأزهر القديمة . ومنها ما اختص بإعراب القرآن والسنة ، وهو منهج تطبيقى للقواعد على النص الشرعى، وقد بلغت كتب الإعراب من الكثرة فى مختلف العصور ما يعكس الاهتمام بكتاب الله مثل : إعراب القرآن للنحاس، ومشكل اعراب القرآن لمكى ابن أبى طالب ، والبيان فى إعراب القرآن لابن

الأنبـارى ، ومـعـانى القـرآن وإعـرابه للزجـاج ، ومـعـانى القـرآن للفـراء ، وللأخفش ، وإملاء ما من به الرحمن للعكبرى وكل ذلك مطبوع ومنشور ، وقد خرج حديثا كتاب "إعراب القرآن وبيانه" لمحيى الدين الدرويش فى عشرة مجلدات ، وهو ميسر جداً وبخاصة للمبتدئين .

وهناك لون آخر من الدراسة النحوية التطبيقية ، يتمثل فى توجيه القراءات القرآنية نحوياً ، سواء كانت قراءات متواترة وهى القراءات العشر ، أم كانت قراءات شاذة ، فمن ذلك : الحجة فى القراءات السبع لأبى على الفارسى ولابن أبى زرعة ، ولابن خالويه. والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكى . وإعراب القراءات الشاذة للعكبرى ، والمحتسب لابن جنى .

ومن الدراسات النحوية الطريفة ما يتعرض لرد الشبهات التى أثارها الملحدون فى أسلوب القرآن الكريم والسنة النبوية ومن ذلك : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، ومشكلات الجامع الصحيح لابن مالك ، ومغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى ، ونتائج الفكر للسهيلى ، وبدائع الفوائد لابن قيم الجوزية .

– وحتى يتم الوضوح والبيان للأسلوب العربى لابد من معرفة سياق النص وما لحقه ، وتتعرض لهذا كتب أسباب النزول للسيوطى وغيره ، وكتب البلاغة التى تعنى بمقتضيات الأحوال وأسرار التراكيب فى التقديم والتأخير والإيجاز والإطناب والمساواة والحقيقة والمجاز والقرائن والمحسنات البديعية . ومن أفضل كتبها أسرار البلاغة ، ودلائل الاعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ، وكتاب التلخيص وشروحه للخطيب القزوينى ، وللشيخ حامد عونى كتاب ميسر فى البلاغة الواضحة . وللدكتور محمد محمد أبو موسى مجموعة كتب مفيدة جداً فى أسرار التراكيب .

– وفى كتب التفسير عناية بهذه المباحث وإن كان بعضها يركز على المباحث النحوية – بحسب تخصص المفسر – كما فى البحر المحيط لأبى

حيان ، والدر المصون للسمين الحلبى ، ومنها ما يعنى بالمعانى البلاغية كتفسير الكشاف للزمخشرى ، وتفسير أبو السعود والمحرر الوجيز لابن عطية ، ومنها ما يعنى بالأحكام واستنباطاتها من النص مثل الجامع لأحكام القرآن للقرطبى وهكذا .

"أهمية الكشف عن المعنى اللغوى"

من المهم جداً التنبيه إلى أن القرآن والحديث قد يرد فيهما اللفظ الواحد مستعملا فى أكثر من معنى ، ضرورة مراعاتهما للهجات المختلفة حيث نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف ، وكان النبى ﷺ يكلم كل وفد من وفود العرب بلهجته حتى تعجب سيدنا على بن أبى طالب من ذلك فقال له : علمنى ربى فأحسن تعليمى . وقد سبق أن أشرنا إلى أن الأفضل للدارس الباحث عن معنى لغوى للفظ شرعى أن يرجع إلى كتب الغريب ، وليس معنى ذلك أن المعاجم اللغوية لا تفيد الباحث عن المعنى المستعمل فى النص الشرعى ، ولكن بصعوبة تتدرج من المعاجم الصغيرة إلى المعاجم الكبيرة .

وحتى لا يكون الكلام نظرياً يتوه فى عالم العموميات نتعرض لبعض الأمثلة من النصوص القرآنية ليتبين صدق ما نقول من أهمية الكشف على المعنى اللغوى ومعرفته بدقة قبل فهم الآية :

١- توقف ترجمان القرآن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه مع ما عرف عنه من قوة الحافظة وإلمامه الواسع بالشعر العربى عن الإدلاء برأيه فى معنى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ . فيقول : لم أفهم معناها إلا بعد أن سمعت ابنة ذى يزن وهى تقول لخصمها : تعال أفاتحك ، فعلمت أن الفتح مستعمل عندهم بمعنى الحكم والقضاء ، وعلى هذا فالمعنى : ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير

الحاكمين .. وعلى هذا أيضاً نفهم قوله تعالى : ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ . ذلك أنه يوم الحكم والقضاء بين الناس ، لا بمعنى فتح الأبواب ولا فتح الأمصار ..

٢- توقف أيضاً سيدنا عبد الله بن عباس فى معنى قوله تعالى : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ حتى سمع رجلا يخاصم آخر على بئر فيقول له : أنا فطرتها بمعنى أنه هو الذى بدأ حفرها دون سابق له .

٣- توقف سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بالرغم من درايته الكبرى بالشعر العربى فى معنى التخوف فى قوله تعالى : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ فى سورة النحل حتى قام بعض الصحابة فقال : هذه لغتنا يا أمير المؤمنين : التخوف عندنا التنقص أى أن الله يعدد احتمالات العقاب فى الدنيا للساكرين إما بخسف الأرض بهم وإما بإتيان العذاب الماحق من حيث لا يحتسبون . وإما بأخذهم وهم يتقلبون فى منامهم أو فى معايشهم ، وإما بأخذهم بالتدريج : ينقص منهم النعم شيئاً فشيئاً حتى يهلكوا .

٤- ورد اليأس فى القرآن الكريم بمعنى الإحباط والقنوط وعدم الرجاء مثل قوله تعالى : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ وقوله : ﴿ أولئك يئسوا من رحمتي ﴾ . وقوله : ﴿ وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴾. لكن هناك آية ورد اليأس فيها بمعنى العلم على لهجة من لهجات العرب وذلك في قوله تعالى : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ﴾ . ومعناها : أفلم يعلم .

٥- قوله تعالى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ اختلف الفقهاء فى حكم التوجه إلى الكعبة المشرفة هل الواجب تحرى عين الكعبة ؟ أو يكفى التوجه إلى ناحيتها ؟ وهل على من يقيم خارج مكة أن يتحرى أيضاعين الكعبة ؟ أو تكون قبلته مكة نفسها ؟ أو المسجد الحرام كله ؟ .. وبعد اتفاقهم

على أن من يكون فى المسجد الحرام – ويمكنه رؤية الكعبة – يجب عليه أن يتجه إلى الكعبة نفسها ، بحيث لو انحرف عنها بطلت صلاته جاء خلافهم فيمن هو خارج المسجد الحرام ، وانبنى الخلاف على الدلالة اللغوية لكل من كلمة "شطر" وكلمة "المسجد الحرام" إذ ورد الشطر فى اللغة بمعنى النصف وبهذا أخذ الفريق القائل بوجوب تحري عين الكعبة ومنتصفها .. كما ورد الشطر بمعنى الجهة وبه أخذ الفريق الآخر الذى يرى الاكتفاء بالتوجه ناحيتها . كما أن كلمة المسجد الحرام أطلقت فى القرآن على المسجد نفسه وعلى مكة كلها وعلي الحرم كله ، ومن هنا قال بعض الفقهاء من الصحابة والمجتهدين : إن الكعبة قبلة من فى المسجد ، وإن المسجد قبلة من فى مكة ، وإن مكة قبلة من بخارجها من الحرم ، وإن الحرم قبلة لأهل المشرق والمغرب . وواضح أن قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قد ورد فيه لفظ المسجد مرادا به ما حول المسجد حتى المواقيت .

٦- فى قوله تعالى : ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ . لو فسرنا "نقدر" هنا بمعنى "نستطيع" لكان فى إيمان سيدنا يونس خلل ؛ إذ كيف يظن نبى ورسول أن الله عاجز عن إدراكه . ولكن لو رجعنا إلى المادة اللغوية لوجدنا أن الفعل هنا مستعمل بمعنى التضييق ، أى فظن أن لن ~~نضيق عليه~~ ؛ لأنه خارج للدعوة إلى الله فى مكان آخر بعد أن رفض قومه الاستجابة له . غير أنه خرج دون إذن من ربه ، ومن هنا ضيق عليه فى بطن الحوت. وبهذا المعنى ورد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ .

٧- فى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ﴾ وردت كلمة "عرضة" فى اللغة بمعنى كل شيء اعترض ومنع ، كما وردت بمعنى الشيء المعرض المبتذل بكثرة . والآية صالحة لكلا المعنيين على أساس أن الله ينهى

أن يحلف به على منع خير – كصلة رحم مثلا – ثم يحتج الحالف بأنه لو لم يحلف لوصل رحمه .. كما أنه ينهى عن كثرة الحلف بالله كما ذمه فى آية أخرى فى قوله : ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ .

٨– قد يبين المعنى اللغوى الحكمة فى اختيار القرآن لفظا معينا له ظلال أو له إشارة إلى حكم أو ضابط حكم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ فقد اختار لفظ "تثقف" بدل "تجد" أو "تلقى" ، وفى ذلك حكمة ؛ إذ كلمة "تثقف" تعنى : وجده بحيلة وذكاء ودهاء فكأن الآية باختيارها هذا اللفظ توحى للمسلمين أن يستعملوا الحيل والفطنة ووضع كل الاحتمالات لضبط هؤلاء اليهود وهم مختبئون خلف حصونهم أو خلف الغابات ؛ فإن من طبيعتهم الجبن كما قال سبحانه : ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ .

٩– ومن ذلك اختيار لفظ "القنوت" فى وصف المرأة الصالحة بدل لفظ الطاعة ؛ لأن القنوت هو الطاعة فى خضوع ، ومن المفروض شرعاً أن تكون المرأة قانتة لله دائماً ، ولأبيها قبل زواجها ، ولزوجها بعد خروجها من بيت أبيها، فالقنوت وصف دائم لها ، ومن هنا جاء قوله تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ . وقال : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ . وقال مخاطباً نساء نبيه حين بدا من بعضهن تدلل وتذمر : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ ﴾ . وقال عن مريم : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ .

١٠– ومن ذلك اختيار كلمة "الفسق" بدل "الخروج" لأن الفسق فى اللغة خروج إلى التهلكة ، تقول العرب حين يرون نضج البلح على الشجر يحثون صاحبه على جنيه قبل أن يفسد : فسقت الرطبة عن قشرها – ويقولون : فسقت الفأرة عن جحرها ، لأن الرطبة إذا انخرمت قشرتها

تعرضت للميكروبات ففسدت ، والفأرة إذا خرجت من جحرها تعرضت لأعدائها فأكلتها .

١١- ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ بدل : يزيل أثره فى زيادة المال ، لأن المحق فيه إشارة إلى الإزالة الكلية للأصل والربح معا بحيث يصل صاحبه إلى الحيرة والاضطراب بعد خسارته كما يحدث للقمر فى المحاق حيث يظلم الكون ويضل فيه السائر .

١٢- قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ الحكمة فى معناها اللغوى مأخوذة من حَكَمَة الدابة أى لجامها الذى يتحكم فى سيرها .. ومن هذا المعنى اللغوى قيل عنها إنها : وضع الكلمة المناسبة للشخص المناسب فى الوقت المناسب ، لأن راكب الدابة إذا رأى أمامه خطراً حول وجهة فرسه إلى طريق أمن ، أو توقف بالكلية .

مثّل علماء الصرف المادة اللغوية المجردة بالذهب المذاب : يوضع فى قوالب مختلفة فتظهر منه أشكال متعددة ، فهذا قرط،وتلك أسورة ، وهذا عقد ، وذاك خاتم ، بحسب الإطار الذى وضع فيه .. وطبقوا هذا المعنى على المادة اللغوية حين تصاغ على أوزان وصيغ ، فكما لا يقال عن الخاتم والأسورة والعقد إنها ذهب فقط كذلك لا يقال عن التقوى والمتقى ، والوقاية ، والتقىّ إنها بمعنى الحفظ فقط . فكل صيغة من هذه الصيغ لها دلالة خاصة . فالتقوى اسم مصدر من الفعل : " اتقى " الدال على التكلف والمشقة أو على الاتخاذ والامتلاك كما نقول : استمع فلان فنفهم أنه بذل جهدا فى الاصغاء متعمدا ، وإذا قلنا : سمع فلان فلا يدل على أكثر من إدراك سمعه لشىء دون تكلف أو تعمد . وإذا قلنا : اختتم فلان بالفضة علمنا أنه اتخذ وامتلك خاتماً . ومن هذين المعنيين نفهم أن كلمة "اتقى" ومنها التقوى تدل على أن صاحب هذا الحدث قد بذل جهداً فى الوصول إلى اتخاذ وقاية من غضب الله ، وهذا الجهد متمثل فى القيام بتكاليف الشرع فى تنفيذ الأوامر والبعد عن المنهيات ، فإذا قيل لنا إن التقوى هى "فعل الطاعات واجتناب المعاصى" علمنا أن هذا القول نتيجة لهذه الصيغة . أما المتقى فهو على صيغة اسم الفاعل الدال على التجدد والحدوث لهذا الفعل . وأما التقىّ فهو على صيغة الصفة المشبهة الدالة على الدوام والثبوت . ونخلص من هذا المعنى الذى حملته إلينا الصيغة أن من بذل جهداً فى التقرب إلى الله وحفظ حدوده فقد اتخذ لنفسه وقاية وحفظا وحراسة من الله لأن من حفظ الله حفظه الله .

١- ومن أمثلة هذا المعنى الصيغى أن القاعدة الصرفية تقول : إذا أردنا صوغ اسم الزمان واسم المكان من مصدر الفعل الأجوف اليائى جاء على وزن "مَفْعِل"،وتحديد الدلالة على الزمان أو المكان يرجع إلى السياق ..

وهناك رأى لبعض العلماء معتمد على كثرة السماع يرى أن المصدر الميمى أيضاً يصاغ قياسا من هذا الباب على هذا الوزن وعلى وزن "مَفْعَل" أيضاً مثل السير مصدراً للفعل "سار" يأتى منه اسم الزمان والمكان على "مسير" ويأتى المصدر على "مسار" و "مسير" . ودلالة المصدر كما هو من البدهيات على مجرد الحدث .. وفى ضوء هذه القاعدة نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ . فنجد كلمة المحيض – وفعلها حاض يحيض ومصدرها الحيض – من هذا الباب فهل هى اسم زمان أو اسم مكان أو مصدر ميمى ؟ فى الموضع الأول يترجح كونها مصدراً ميمياً ؛ لأن السؤال عن الحيض بمعنى الدم النازل من المرأة فى العادة الشهرية ؛ ولذلك كان الجواب بأنه أذى يخرجه الله من المرأة ، وهو أذى للرجل والمرأة حين يقترب منها أثناء نزوله ، أما الموضع الثانى فإنه صالح للاحتمالات الثلاثة وإن كان احتمال اسمى الزمان والمكان أرجح فالأمر بالاعتزال موجه للرجال فى زمن الحيض وفى مكانه ، وبذلك يكون تفصيل رسول الله ﷺ لمكان الاعتزال بيانا فقط لما أجمل فى هذه الصيغة ، فبمجرد انتهاء زمن الحيض يحل للرجل الاقتراب منها – كما أن المحظور على الرجل في هذه الأثناء أن يقترب من موضع خروج الدم فقط وما عدا ذلك حلال .

أرأيتم إلى هذا الاعجاز فى الايجاز بسبب إدراك معنى الصيغ.

٢– ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ فإن معاجم اللغة تدل على أن القسط بفتح القاف هو الظلم والجور ، وقد ورد على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ . لكن هذا الفعل "قسط" إذا دخلت عليه الهمزة أفاد معنى العدل ، وتسمى هذه الهمزة همزة السلب والازالة ، فإن سلب الظلم هو العدل . فإذا قال تعالى : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ . فهمنا أن الله يطلب منا ازالة الظلم لأنه يحب ذلك

. وتأتى كلمة "القسط" بكسر القاف اسم مصدر من الإقساط بمعنى : ازالة الظلم أيضاً ويكون قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ بمعنى أمر بالعدل .
وبهذا المعنى الذى تدل عليه همزة السلب وردت أمثلة كثيرة عن العرب حيث يقولون : أعجمت الكتاب بمعنى أزلت عجمته ، وأشكيت فلانا بمعنى أزلت شكواه ، وأقذيت عينه بمعنى أزلت القذى عنها وهكذا .

٣- ومما يتصل باسم المصدر ما نتداوله فى التحذير من الغيبة والنميمة .. ذلك أن بعض الوعاظ ينطقون الغيبة بفتح الغين ، وذلك خطأ ؛ لأن الغيبة بهذا الضبط مصدر للفعل غاب ، والغياب ليس داخلا فى الكبائر ، إنما المنهى عنه أن تذكر أخاك بما يكره وهو غائب ، والذى يؤدى هذا المعنى الفعل : اغتاب اغتيابا . واسم المصدر منه الغيبة بكسر الغين لا بفتحها . ونسميه اسم مصدر لأنه دل على معنى المصدر ونقصت حروفه عن حروف فعله كما فى قول الله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ فالخيرة اسم مصدر من الفعل " اختار ، يختار ، اختيارا " .

٤- قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ اختلف المفسرون فى هذه الآية حيث يورد الجهلة سؤالا : كيف يأمر الله المترفين بالفسق ؟ فقال بعضهم : إن المأمور به هنا محذوف لفهمه من السياق وكان الأصل : أمرنا مترفيها بالطاعة والاصلاح ففسقوا وأفسدوا .. وقال المحققون : إن هناك قراءة متواترة تنطق هذا الفعل بمد الهمزة : آمرنا . ومعناه : كثرناهم لأن الهمزة هنا نقلت الفعل من اللزوم إلى التعدى والفعل هو "أمر" بكسر الميم وهو يدل على معنى : كثر ، ومنه قول أبى سفيان للعباس يوم الفتح عن النبى ﷺ : لقد أمِر أمْر ابن أخيك. أى ظهر وانتشر . وهذا المعنى فى تلك القراءة هو نفسه فى القراءة المتداولة لحفص ، على الطريقة الأخرى للتعدية ، ففى القراءة الأولى تعدى الفعل بزيادة الهمزة وفى القراءة الثانية تعدى بتغيير الصيغة إلى باب : نصر

ينصر : فصار المعنى : أمرنا مترفيها أى كثرناهم فيتفق معنى القراءتين . وتكون كلمة "مترفيها" مفعولا به ولا حذف فى الآية . ويتفق ذلك مع الواقع التاريخى أن الله إذا أراد إهلاك أمة كثر فيها المترفين فطغوا وأفسدوا .

٥- قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ . كثر فى هذه الآية كلام المفسرين من حيث إن المادة اللغوية فى اللفظين واحدة هى الرحمة . فمن قائل إنه رحمان الدنيا رحيم الآخرة ، أو المنعم بالنعم الكبرى والصغرى .. وهكذا . لكن الاحتكام إلى دلالة الصيغة هو الذى يعطينا الفرق بين اللفظين ببيان واضح مقبول شرعا وعقلا ولغة . ذلك أن صيغة "فعلان" فى الصفة المشبهة تدل على الامتلاء إلى النهاية أو الخلو إلى النهاية ، وذلك مثل فرحان أو شبعان ، ومثل : جوعان أو ظمآن . وصيغة "فعيل" تدل على الانتشار والذيوع مثل : كريم ، حليم ، لطيف .. وحين نطبق هذا المعنى على الآية بعد تحويل فعل : "رحِم" المتعدى إلى رحُم اللازم بضم الحاء للدلالة على اللزوم والدوام كما هو الشأن فى صياغة الصفة المشبهة .. نجد أن المعنى فى وصفه تعالى بالرحمن أنه اتصف بالرحمة اتصافا ذاتيا ، وبلغت عنده مبلغا لا يمكن أن يصل إليه من سواه ، وفى وصفه تعالى بالرحيم يعنى أن رحمته وسعت كل شىء وانتشرت وعمت كل الخلائق ، ومن هنا يقول الإمام ابن قيم الجوزية "الرحمن صفة ذات والرحيم صفة فعل" . ومن هنا أيضاً لا يطلق لفظ الرحمن إلا على الذات العلية ولا يوصف به من سواه ؛ إذ هو مرادف للفظ الجلالة فى مثل قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ وقوله : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ ﴾ .

٦- قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ جاء وصف النبى هنا بضيق الصدر من مواقف قومه ، وهو إذا كان ملازما للانسان كان خلقا سيئا ، وهذا ما يتنافى مع وصف النبى بأنه على خلق عظيم ؛ ولهذا جاء الوصف بصيغة

اسم الفاعل الدالة على التجدد والحدوث بعد أن لم يكن موجوداً فهو طارىء غير ملازم .. أما حين وصف القرآن جهنم بالضيق فإنه لم يأت بصيغة اسم الفاعل وانما جاء بصيغة الصفة المشبهة الدالة على الثبوت والدوام والملازمة فقال عنها : ﴿ ألقوا فيها مكانا ضيقا مقرنين ﴾ وعلى هذا الوزن جاء : طيب ، هين، لين ، سيد، ميت .

٧- فى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ كلمة الصراط مأخوذة من : سرط الشىء إذا ابتلعه فى يسر وسهولة ، وهذه اللفظة هى التى حرفت فى اللغة العامية إلى : زلط . غير أن اختيار صيغة "فِعال" لطريق الاسلام فيه دلالة أخرى غير الدلالة اللغوية ، ذلك أن هذه الصيغة تستعمل فى اللغة للاشتمال والاحاطة مثل الإزار ، الرداء ، اللحاف ، الغطاء ، الخمار ، الإطار . فهى إذن فى الصراط إشارة إلى أن من يدخل فى الاسلام يجده سهلا كما يبتلع المرء اللقمة فى سهولة ييسرها له البلعوم بما فيه من مادة مخاطية ، وهذا هو المعنى اللغوى ، وهو كذلك يغطى كل احتياجاته بحيث لا يفتقر إلى رافد آخر يأخذ منه رأيا أو حكما أو توجيها . وهذا هو المعنى الصيغى .

٨- قـال تعالـى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ . الفقه فى اللغة هو الفهم والإدراك ، أما التفقه فهو التعمق والتكلف للفهم وهذا المعنى مأخوذ من الصيغة التى أتى عليها هذا الفعل ، وبهذه الصيغة نفهم أن القرآن يوجه طلاب العلم أن يبذلوا أقصى جهدهم للتعمق فى فهم الدين لأن الفهم السطحى قد يؤدى إلى الفساد فى فهم أحكام الله .. ومن هذه الصيغة استدل جمهور الفقهاء على ضرورة اغتسال الحائض بعد انقطاع الدم قبل أن يباشرها زوجها ، لأن الطهر يطلق لغة على النقاء من الحيض وعلى الاغتسال أما التطهر فهو المبالغة فى الطهر مع تحصيل المشقة فى ذلك وهذا لا يتأتى إلا بالغسل والآية تقول : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

٩- قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ العمى قد يكون للعين وقد يكون للقلب ، فعمى البصر يأتى فى اللغة وصفه على صيغة "أفعل" فيقال فيه : أعمى ويجمع على : عمى وعميان . كما في قولك : أعرج ، أصفر ، أحول ، أكتع .. أما عمى البصيرة فيأتى الوصف منه على صيغة "فَعِل" فيقال : عم وجمعه : عمون . كما فى قولك : قلق ، أرق، فرح ، جزع ، حزن ، لبق ، جشع . فإذا وصف الله الكافرين هنا بأنهم عمون فهمنا أنه يقصد أن عماهم فى بصائرهم وقلوبهم ، كما قال عن قوم نوح : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

١٠- قوله ﷺ : " فذلك مثل من فقُه فى دين الله تعالى فنفعه ما بعثنى الله به

الفقه - كما سبق - هو الفهم ، لكن إذا أريد الدلالة على هذا المعنى فقط جاء الفعل على صيغة "فعل يفعَل" فيكون : فقِه يفقه مثل فهم يفهم وعلم يعلم . أما إذا أريد وصول هذا الفهم إلى درجة الملكات الثابتة والغرائز الدائمة بحيث يتصف بموهبة الفقه جاء التعبير

بصيغة "فعُل" كطهر وشرف وكرم . وهذا ما يريده النبى ﷺ لمن ينتفع بعلمه وهداه فينفع نفسه وغيره . ويكون الفقه لديه كالطبيعة والغريزة التى خلق عليها .

"الأثر المعنوى لمعرفة الموقع الإعرابى"

أشرنا فيما سبق إلى أن القارىء أو الدارس للنص الشرعى لابد له – بعد أن يدرك المعنى اللغوى للكلمات الواردة فى النص على أساس ما كان مستعملاً لدى العرب فى أثناء نزول الوحى لأنه نزل بلسان عربى مبين – وبعد أن يدرك الصيغة التى وردت عليها تلك الكلمات .. لابد له أن يعرف موقع كل كلمة فى هذا النص ، من حيث الاسناد والعلاقات التركيبية فى الجملة المفيدة ؛ حتى لا ينسب حدث إلى من لم يقم به ، فيختلف المعنى المراد للشرع ، وينحرف عن مساره، كما أشرنا إلى أن الذى يتكفل بهذه المعرفة هو "علم النحو" الذى يحدد الموقع الاعرابى لكل كلمة من خلال قواعده واحتمالاته . والأمثلة الآتية توضح أثر هذه القواعد فى استنباط المعنى والحكم الشرعى :

١- قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾ . اختلف الفقهاء فى وجوب القصاص بين الحر والعبد فيما إذا قتل الحر عبدا : هل يقتل فيه أولاً ؟ . وكان معتمدهم الأساسى فى فهم تركيب هذه الآية ، فمن رأى وجوب ذلك وقف على قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ وكلمة "القتلى" عامة تشمل الحر والعبد ، وجعل الجملة التى تليها : " الحر بالحر والعبد بالعبد " مستقلة عما قبلها ؛ حيث تستنكر هذه الجملة على العرب عادة الكبر والتعالى القبلية حين كان يقتل عبد من قبيلة فانها تقتل أمامه حرا من القبيلة القاتلة أخذا بالثأر ، وإذن فهى تقر مبدأ المساواة ، أول الآية كآخرها وكأنها تقول : دماء البشر متساوية في الحرمة ، والعدالة تقتضى أن يقتل القاتل بصرف النظر عن مكانته ، فإذا

قتل الحر حرا قتل فيه وإن قتل العبد عبدا قتل فيه بلا تمييز . ومن رأى عدم التساوى بين العبد والحر ، ولم يوجب القصاص على الحر جعل الجملتين جملة واحدة ، واعتبر الثانية مفسرة لكلمة "القتلى" فى الجملة الأولى .. فكأنه قال : كتب عليكم القصاص فى القتلى إذا كان حرا بحرّ أو عبداً بعبدٍ أما إذا اختلفا فلا قصاص على الحر إذا قتل عبداً لأنه أدنى منه مكانة .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. اختلف الفقهاء فى تحديد ما يسقط بالتوبة عن القاذف من العقوبات المفروضة عليه في هذه الآية ، ويرجع اختلافهم إلي القواعد النحوية التركيبية ، ذلك أن الجملة يمكن أن ينتهى فيها الخبر عن اسم الموصول : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ عند قوله ﴿ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ . وتكون العقوبة التي لا مناص منها هى الجلد ، ثم تبدأ جملة جديدة من قوله : ﴿ وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ على أساس أن الواو للاستئناف ، ثم يأتى الاستثناء ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا ﴾ فتكون التوبة مسقطة للعقوبتين : عدم قبول الشهادة ووصفهم بالفسق .. فيعود القاذف بالتوبة إلى صفوف المسلمين : تقبل شهادته ولا يوصف بفسق .

كما أن الاسلوب يحتمل معنى أخر وهو أن تكون الواو في قوله : "ولا تقبلوا" عاطفة على قوله فاجلدوهم فيكون من اللازم جلده ورفض شهادته مطلقا سواء تاب أم لم يتب . وتكون جملة : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ هى المستأنفة وبخاصة أنها خبرية ويكون الاستثناء منها فقط ؛ فالتوبة إذن لا تسقط إلا وصفه بالفسق . والمعتمد فى كلا الرأيين على ملحظ نحوى تركيبى هو اعتبار الواو حرف استئناف أو حرف عطف .

٣- قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ . الدارس للغة العربية دراسة سطحية يعلم أن " إلا " تأتى للاستثناء مما قبلها ؛ أى أن ما بعدها جزء مما قبلها .. وهذا المعنى لو طبق في هذه الآية لأدى إلى فساد فى العقيدة إذ سيكون المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة والله منهم لم تفسدا .. لكن المتعمق فى اللغة يعلم أن "إلا" هنا ليست للاستثناء ولكنها بمعنى "غير" وأن المعنى : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا . وتكون "إلا" هنا صفة لـ "آلهة" وانتقلت الضمة منها إلى لفظ الجلالة على سبيل العاريّة .

٤- قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ . لو أخذنا بظاهر اللفظ فى تلك الآية لكانت الكلاب المعلمة حلالا أكلها بنص الآية ؛ إذ أحل الله الطيبات ، وعطف عليها المعلم من الكلاب . لكن النحو حين يتدخل بقاعدته المشهورة : " قد يحذف المضاف فيقوم المضاف إليه مقامه " نرى الجملة يستقيم معناها المقصود ، وتفهم على أن الذى أحل هو صيد الكلاب المعلمة لا نفس الكلاب بدليل آخر الآية ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ . وتقدير الآية على قاعدة النحاة : أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم من الجوارح . هذا إذا لم نعرب الواو للاستئناف ، وما علمتم على الابتداء والخبر ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

٦- قوله تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ . السطحيون يقولون إن الباء هنا بمعنى "من" أى يشرب منها عباد الله .ولكن المحققين المتعمقين يقولون : إن القرآن الكريم لم يضع حرفا مكان حرف إلا لعلة وسبب ، قد يخفى علينا فى زمن ، وقد يظهر فى زمن آخر ، وهذا سر من أسرار الاعجاز ، ومن هنا تأتى قاعدة التضمين لتحل هذا الاسلوب إلى معنى جميل: ذلك أن الشارب قد يشرب الشيء وهو مكره كالمريض حين يحتسى الدواء ، وقد يشربه ولا يرتوى به بل يزيده عطشا على عطش ، لكن الشارب فى

الجنة يشرب من تلك العين وهو متلذذ مرتو مستمتع بها ، وعلى هذا فالفعل " يشرب " فى الآية متضمن معنى : يرتوى ويتلذذ .

٧- ومن هذا الوادى قوله ﷺ عن الصلاة : " أرحنا بها يا بلال " إذ لم يقل : أرحنا منها .

٨- ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ولم يقل : الذين هم فى صلاتهم ساهون .

٩- كما أن من فوائد التضمين فهم قوله تعالى : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ . من حيث أن الفعل "قعد" يتعدى بحرف الجر ، ولا يتعدى بنفسه ، وهو هنا قد تعدى إلى المفعول به بنفسه فجعل "صراطك" منصوبا به ، ولا يتأتى هذا إلا بتضمين "أقعد" معنى "ألزم" أى لألزمن صراطك المستقيم قاعدا فيه ، أوسوس لهم أن يتركوه .. ذلك أن القعود من شأنه أن يكون طارئا متجددا ، يفارقه المرء إلى المشى ، وإلى الوقوف ، وإلى النوم ، لكن الشيطان لا يفارق الطريق المستقيم ملازما إياه ، يصد الناس عنه ولا ييأس من ذلك ولا ينتقل عنه . والذى أفادنا ذلك هو التضمين .

١٠- من هذا الباب أيضا قولنا حين الرفع من الركوع : سمع الله لمن حمده . فان الفعل "سمع" متعد بنفسه إلى المفعول قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ . ولكنه هنا تعدى باللام لملحظ هام ، ذلك أن السماع قد يكون لشكوى كما فى الآية الأولى وقد يكون لقول مكروه منكر كما فى الثانية .. ولكن السماع هنا تضمن معنى الاستجابة ، إذ وعد الله الشاكرين بالمزيد من النعم فى قوله سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ فمن يحمد الله يكون طالبا بطريق غير مباشر أن يزيده الله من فضله ومن هنا كانت اللام فى " سمع الله لمن حمده " . أى سمع واستجاب له .

١١- قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ . اختلف الفقهاء فى اعتبار التعدد للزوجات هو الاصل أو الاصل الافراد ، ولكلٍّ من الرأيين فى هذه الآية دليل .. فمن اكتفى بجواب الشرط ورأى أن الجملة قد تمت عند قوله : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ كانت الآية دالة على أن الأصل هو ما يرضى الزوج ويعفه سواء كانت واحدة أم أكثر .. وتكون الجملة الثانية محذوفة العامل وكأنه قال : لماذا تتمسكون بالزواج من اليتامى وقد أبحت لكم مثنى وثلاث ورباع والنساء غيرهن كثير .. أما من جعل كلمة "مثنى" وما بعدها حالا من "ما طاب لكم" فانه رأى أن الأصل التعدد . انبنى كل رأى على وجه نحوى .

١٢- قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ لو جعلنا الجار والمجرور "عليكم" متعلقا بالفعل "حرم" . ووقفنا على ذلك . وبدأنا تعداد المحرمات من قوله : ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا ﴾ .. كان عدم الشرك محرماً مما قد يفيد أن الشرك هو المطلوب ، أما إذا جعلنا هذا الجار والمجرور متعلقا بمحذوف هو الخبر مقدما على المبتدأ وهو المصدر المؤول من قوله : ﴿ أَلاَّ تُشْرِكُوا ﴾ كان المعنى : عليكم عدم الاشراك . أى أنتم ملزمون بعدم الاشراك ، ويستقيم المعنى في كل ما سيأتى بعد ذلك من مثل : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ . ويمكن أن تكون ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ اسم فعل أمر بمعنى الزموا عدم الاشراك ... الخ .

من ذلك :

١- قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ . المعروف فى الأسلوب العربى أن المشبه به أقوى فى وجه الشبه من المشبه ، والمفروض أن الثروة الاقتصادية النظيفة تقوم على التجارة فى البيع والشراء وأن المكسب الناتج من البيع هو الأصل .. لكن الآية هنا تحكى عنهم تشبيها مقلوبا فيشبهون المكسب الناتج عن البيع بربح الربا .. إشارة إلى أن الوضع الاقتصادى عندهم قد انقلب رأساً على عقب ، فصار الربا عندهم هو مصدر الثراء وأن البيع ملحق به ، وهذا محل السخرية منهم والعجب من أوضاعهم حيث يعقب الله على ذلك : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ .

٢- قوله تعالي : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ . أسلوب الحصر بالنفى والاستثناء أو بـ "انما" أسلوب توكيدى يقصر حكما على شىء أو شيئا على حكم .. وعند هذه الآية وقف بعض الفقهاء الأجلاء أمام هذا الحصر الإلهى للمحرمات فى أربعة أشياء فقط ، مع أن الحديث النبوى الصحيح أضاف إليها كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير والحمر الأهلية وغير ذلك .. فتساءل كيف يحصر الله ما حرم فى أربعة ثم يضيف النبى إليها ؟ .. هل تنسخ السنة القرآن ؟ وعلى ذلك رأى أن كل ما حرمه النبى يدخل فى باب الكراهة التحريمية . أما الامام الشافعى فانه انتفع بقواعد البلاغة هنا فى تقسيم القصر إلى حقيقى واضافى .. واستحضر ما كان عليه الجاهليون من اعتراضهم على المسلمين فى تحريم الميتة حيث قالوا : كيف تحلون ما قتلتم وتحرمون ما قتل الله ، وفى تحريمهم للدم مع أنه خلاصة الغذاء ، بل إنهم كانوا يفصدون الإبل ويشوون الدم الناتج عن الفصد ويقدمونه للضيوف ، والمثل المشهور عن حاتم

« هذا قصدى أنه » ، وفى تحريمهم الخنزير مع لذة لحمه وشبهه بالأنعام ، وفى تحريمهم لما ذبح للآلهة مع أنه قربان .. وإذن فقد كان الخلاف بين المسلمين والكفار حينذاك منصبا على هذه الأربعة فجاءت الآية ومثيلاتها فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ . لتقول لهم : إن ما ادعيتم حله هو الحرام بعينه . فيكون ردا على معتقداتهم وليس حصرا حقيقيا . كما يكون بينك وبين أحد خلاف فى تفضيل عالم على آخر فتقول له : إنما العالم محمد . فأنت هنا لم تنف العلم عن غير محمد ولكنك حين نظرت إلى علمه وإلى علم غيره وجدت علم غيره كلاشئ بالنسبة لعلم محمد ، فادعيت ان محمدا هو العالم .. وكذلك هنا : ما حرمه رسول الله ﷺ بالنسبة لما حرمه شئ يسير فلا نسخ .

٣- قوله ﷺ " ذكاة الجنين ذكاة أمه " اختلف الفقهاء فى فهم معنى الحديث ففهمه البعض على أن ذكاة أمه ذكاة له فيؤكل ، فلا تشبيه ، وفهمه البعض الآخر على معنى التشبيه أى أنه يذكى مثل ذكاة أمه . الأول أحل الجنين إذا سقط بعد ذبح أمه ميتا ، والآخر حرمه ..

٤- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ . قال عروة بن الزبير لخالته عائشة أم المؤمنين بعد أن قرأ هذه الآية : إذن فما على أحد جناح فى ألا يطوف بهما . قالت عائشة : بئس ما قلت يا ابن أختى . لو كان كذلك لقال : فلا جناح عليه ألا يطوف بهما .. ذلك أن المسلمين تحرجوا أن يسعوا بين الصفا والمروة بعد إسلامهم ، لأن الصفا كانت موضع الصنم إساف ، والمروة كانت موضع نائلة ، وكان السعى بينهما فى الجاهلية تعظيما لهذين الصنمين ، فلما تأثموا من ذلك جاءت الآية ترفع عنهم الحرج والجناح فى الطواف حولهما .

٥- قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ . يستدل بها الكثيرون على فضل العالم على الجاهل مطلقا ويهملون دلالة السياق فيما قبلها ، فإن أول الآية يقول : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ بداية الآية ونهايتها تتحدث عن أثر العلم فى سلوك الانسان،فالعالم الحق هوالذى يخشى ربه فيظل قانتا وساجدا طول الليل داعيا وراجيا وخائفا ، وهو الذى يتذكر حق ربه ويتدبر آياته . وإذن فكم من عالم الجاهل خير منه .. ذلك الذى لا يعمل بما علم وهو أول من تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة .

٦- قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ . يستدل بها المحدثون على حرية العقيدة فى الإسلام فمن اختار الكفر فلا حظر عليه ، ويبطلون حد الردة وذلك من خطل التفكير ومجاراة الحضارة الغربية ، ولى عنق النصوص لتساير الحاضر .. وقرينة السياق هنا تفيد ان المقصود هو التهديد لمن يكفر بدليل أن ما بعد هذه الجملة قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ومن أمثال هذا قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فهل معنى الأمر هنا إباحة للانسان أن يفعل ما يشاء دون حساب ؟ أو أن ختام الآية يهدده برقابة الله .

٧- قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ . الإتيان بهذه الأمور الثلاثة بلفظ واحد بتعبير متماثل هو الكتابة والإلزام بقوله " عليكم " يلفت النظر إلى العلاقة بين هذه الأوامر فكل منها مكتوب وموثق والأمر به ملزم ، وكل منها مكروه ونحن مكرهون عليه لمصلحتنا التى لا نعلمها كما يعلمها ربنا .. إذا كان لنا أن نستنبط العلاقة

بينها فإننا نرى الصيام محققا للأمن النفسى حيث يعيش الصائم فى رقابة ربه ، ويشعر باستعلائه على المادة ، وأنه مادام مع الله فلا يخاف من شيء ولا على شيء . والقصاص محقق للأمن الداخلى فى المجتمع من حيث إن المجرم حين يرى غيره قد اقتص منه لا يقدم على إجرامه ومن هنا جاءت الآية : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ . أما الجهاد فإنه يحقق الأمن الخارجى للأمة ؛ إذ ما تركت أمة الجهاد إلا أذلها الله ، وإذن فمجموع هذه الأوامر هو الذى يحقق الأمن الشامل للفرد وللأمة .

"خاتمـــة"

هذا وللتعمق فى اللغة أثره فى فهم كل جملة فى كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، وما انحرف بعض شبابنا عن الإسلام الصحيح إلا بجهلهم بمعطيات اللغة العربية سواء فى النصوص الخاصة بالعقيدة أم بالشريعة أم بالقصص القرآنى .. وإذا استرسلنا فى ذلك فسنجد أنفسنا أمام كلام الله عاجزين عن الوفاء بحقه .. وإن أنس لا أنس ذلك الشاب المتحمس حين قال لى : أنتم تقولون : إن الانبياء معصومون من الشرك قبل النبوة وأنا آتيك بآية فى كتاب الله صريحة فى نسبة الشرك لنبى ورسول مشهور .. قلت له : هات الآية يا بنى : قال يقول سيدنا شعيب : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ . فهو هنا يعترف أنه كان فى ملتهم قبل الرسالة وبأنه لن يعود إليها . قلت له : ما أجهلك بلغة قومك يا بنى .. إذا كان فهمك هذا صحيحا فكل الرسل – وليس شعيبا وحده – كانوا مشركين ؛ ذلك أن الله عز وجل يقول فى سورة ابراهيم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ فكل الرسل هددوا بالإخراج من أرضهم أو الدخول فى ملتهم .. فهل كان ابراهيم مثلا مشركا قبل الرسالة ؟ . إن الجهل باللغة هو الذى أدى إلى هذا الفهم السقيم ؛ فان اللغة تقول إن الفعل "عاد" إذا تعدى

بحرف "إلى" كان بمعنى : رجع ، أما إذا تعدى بالحرف "فى" فانه بمعنى "دخل" واذن فمعنى ﴿ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى تدخلن ، ومعنى إن عدنا فى ملتكم . إن دخلنا فيها بعد إذا نجانا الله من الدخول فيها ..

إن النبى ﷺ حين حدد ثلاثة أمور للشعور بلذة الإيمان جعل منها : "وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار " فهل معنى ذلك أن المرء لا يدرك لذة الإيمان إلا إذا كان كافرا وأسلم !! إن فهم اللغة التى نزل بها الوحى هو السبيل الوحيد لفهم مراد الله عز وجل .. وكم من شبهات بنيت على مغالطات لا يحلها إلا الاستعمال العربي الفصيح .

كما لا أنسى شابا آخر جاء ليقول : نريد أن نرفع كلمة الله بعد أن صارت فى التراب .. فقلت له : أستغفر الله ! إن كلمة الله لا يمكن أن تتنزل من عليائها ، فقال لى : لماذا والله يقول : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ﴾ فقلت له : اضبط الآية ضبطا صحيحا . اضبط كلمة "الله" فعجز . فقلت له : يا بنى إن كلمة الله هنا ليست تابعة للجعل فى الجملة السابقة ، فهى مرفوعة بالابتداء والاستئناف على معنى أنها هى العليا دائماً وباستمرار ، أما كلمة الكفر فقد تعلو بجهد الكافرين وكسل المؤمنين أما المؤمنون فمن أراد منهم أن يعلو مع كلمة الله فليتمسك بها .

فالواو إذن ليست للعطف وإنما هى للاستئناف والجملة مستقلة مفيدة لمعنى الديمومة والاستمرار .

نصيحتى للشباب المتحمس لدينه المستعد لتبليغ دعوته أن يلتزم بما الزمنا به الله : أن يكون بلاغنا مبينا ، وهو لن يكون كذلك إلا إذا فهمنا خصائص هذا البيان ، وفهمنا أسلوب نبينا الذى حصره الله عز وجل في قوله : ﴿ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

فهيا يا أصحاب الدعوة إلى فقه ديننا ، بلغة قرآننا ، وسنة نبينا ، حتى نكون على بصيرة من أمرنا ، وحتى نكون أهلا لتبعية نبينا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين ومن المقصرين فى حق رب العالمين .

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم رسله وخير خلقه أجمعين

أ.د. محمد المختار محمد المهدى

حدائق حلوان فى

١٢ من جمادى الأولى سنة ١٤١٩ هـ